الموت ضرب من القتل

يرثي أبا الهيجاء عبد اللّه ابن سيف الدولة بحلب وقد توفي بميافارقين في صفر سنة ثمان وثلاثين وثلاث مئة (٩٤٩م):

[الطويل]

بِنَا مِنْكَ فَوْقَ الرَّمْلِ مَا بِكَ فِي الرَّمْلِ
وَهٰذَا الَّذِي يُضْنِي كَذَاكَ الذِي يُبْلِي (١)
كَأَنَّكَ أَبْصَرْتَ الَّذِي بِي وَخِفْتَهُ
إِذَا عِشْتَ فَاخْتَرْتَ الحِمَامَ عَلَى الثُّكْلِ (٢)
تَرَكْتَ خُدُودَ الْغَانِيَاتِ وَفَوْقَهَا
دُمُوعٌ تُذِيبُ الْحُسْنَ فِي الْأَعْيُنِ النُّجْلِ (٣)
تَبُلُّ الثَّرَى سُوداً مِنَ الْمِسْكِ وَحْدَهُ
وَقَدْ قَطَرَتْ حُمْراً عَلَى الشَّعَرِ الْجَثْلِ (٤)

---

(١) يبدأ الشاعر قصيدته الرثائية مخاطباً المتوفّى معبّراً عن حزنه وشدّة ألمه لقد طوته المنيّة فذوي في باطن الأرض، وهو في عالم الموت، ومعاناة الموت فوق الأرض أصعب لمصاحبته الحزن والألم والذكرى فيُبلي الأجساد ويُسقمها ويُميت الأرواح ويسلبها طعم لذّة الحياة.

(٢) الحِمام، بسكر الحاء: الموت. الثكل: ألم فقد الأمّ أولادها. يعزو الشاعر سبب موت المتوفى لأنه علم شدّة حبّ الشاعر له وتعلّقه به، فخاف أن يتألّم لفقده ويُبتلى بمثل حبّه له لو بقي على قيد الحياة، لذا اختار الموت ليُخفّف عن نفسه ألم الفراق.

(٣) الغانيات، الواحدة غانية: التي غنيت بجمالها عن استعمالها أدوات التجميل، أو التي استغنت بزوجها. الأعين النجل: الواسعة الجميلة. في العادة أن موت الشباب من كلا الجنسين يُدمي القلوب ويُؤلمها، والأمر يتعلّق بأمير شاب، فمن الطبيعي أن تبكيه الغانيات الجميلات أسفاً على شبابه الغضّ فإذا بأعينهن قد فارقها الحسن لكثرة بكائهن، فإذا به يذوب في أعينهن ممَّا يُفقدهن النضرة والجمال.

(٤) الثرى: التراب. الجثل: الكثّ. يُردف الشاعر حديثه عن شدّة تأثر الغانيات لموت الأمير، فإذا بدموعهن تبلّ التراب لشدّة تأثرهن بالفاجعة، وقد صبغت بالسواد لون الحزن، إنه لون المسك، والمسك طيب الرؤوس التي تركت بلا تسريح وتدلّت شعورهن الكثّة على الخدود، فصبغتها بالسواد الحزين ممَّا أفقدهن شيئاً من حسنهن وجمالهن.

فَـإِنْ تَـكُ فِـي قَـبْـرٍ فَـإِنَّـكَ فـي الْـحَـشَـا
وَإِنْ تَـكُ طِـفْـلاً فـالْأَسَـى لَـيْـسَ بِـالـطِّـفْـلِ (١)
وَمِـثْـلُـكَ لَا يُـبْـكَـى عَـلَـى قَـدْرِ سِـنِّـهِ
ولٰـكِـنْ عَـلَـى قَـدْرِ الـمَـخِـيـلَـةِ وَالأَصْـلِ (٢)
أَلَـسْـتَ مِـنَ الْـقَـوْمِ الْأُلَـى مِـنْ رِمَـاحِـهِـمْ
نَـدَاهُـمْ وَمِـنْ قَـتْـلَاهُـمُ مُـهْـجَـةُ الـبُـخْـلِ (٣)
بِـمَـوْلُـودِهِـمْ صَـمْـتُ الـلِّـسَـانِ كَـغَـيْـرِهِ
وَلَـكِـنَّ فـي أَعْـطَـافِـهِ مَـنْـطِـقَ الْـفَـضْـلِ (٤)
تُـسَـلِّـيـهِـمِ عَـلْـيَـاؤُهُـمْ عَـنْ مُـصَـابِـهِـمْ
وَيَـشْـغَـلُـهُـمْ كَـسْـبُ الـثَـنَـاءِ عَـنِ الـشُّـغْـلِ (٥)
أَقَـلُّ بَـلَاءٍ بِـالـرَّزَايَـا مِـنَ الْـقَـنَـا
وَأَقْـدَمُ بَـيْـنَ الْـجَـحْـفَـلَـيْـنِ مِـنَ الـنَّـبْـلِ (٦)

(١) الأسى: الحزن. يُخاطب الشاعر الفقيد، لقد ضمّه القبر وترك القلوب مفعمة بذكراه الطيبة، فضلاً عن أسىً لاعج، وإن يكن طفلاً فالحزن في القلوب كبير عظيم ليس بالطفل.

(٢) المخيلة: ما يُؤمل بالمرء من خير وفراسة، يُخاطب الشاعر الفقيد؛ إنهم يبكون عليه، رغم صغر سنه، أصل المنبت العظيم ويُؤمل به من خير، إنه أمل ورجاء بمستقبل زاهر، فقد يكون في يوم ما ملكاً عظيماً.

(٣) يُخاطب الشاعر المرثي سائلاً ومقرّراً أنه ينتسب إلى قوم كرام أجواد يستعينون برماحهم لقتل البخل بجودهم، فإذا بهم يطعنون صميم البخل بتلك الرماح.

(٤) الأعطاف، الواحد عطف: الجانب. إن المتوفى وليد لم يُحسن النطق بعد، كغيره من أترابه، ولكنه مع ذلك فليس كسائر الأطفال؛ يُؤمل منه أن يكون كأهله فاضلاً كريماً؛ فالفضل في أعطافه يُنبئ بما سيكون عليه ويُتوسّم في مخايله كلّ خير.

(٥) المصائب: الفاجعة الأليمة. يمدح الشاعر آل بيت الفقيد بأنهم ينتمون إلى أنساب شريفة رفيعة، وهذا ما يحملهم على نسيان مصابهم الأليم، فثمّة ما يُلهيهم عن مصابهم تطلّعهم إلى كسب الثناء والمعالي، إنهم لا ينال منهم الجزع على طفل صغير، وإن حزنوا، وذلك من طبائع البشر الذين يتّسمون برقّة المشاعر وصدقها.

(٦) البلاء: المصيبة. الرزايا، الواحدة رزية: المصائب والويلات. القنا: الرماح. =

عَـزَاءَكَ سَـيْـفَ الـدَّوْلَـةِ الـمُـقْـتَـدَى بِـهِ
فَـإِنَّـكَ نَـصْـلٌ وَالـشَّـدَائِـدُ لِـلـنَّـصْـلِ (١)
مُـقِـيـمٌ مِـنَ الْـهَـيْـجَـاءِ فِـي كُـلِّ مَـنْـزِلٍ
كَـأَنَّـكَ مَـنْ كُـلِّ الـصَّـوارِمِ فـي أَهْـلِ (٢)
وَلَـمْ أَرَ أَعْـصَـى مِـنْـكَ لِـلْـحُـزْنِ عَـبْـرَةً
وَأَثْـبَـتَ عَـقْـلاً وَالْـقُـلُـوبُ بِـلَا عَـقْـلِ (٣)
تَـخُـونُ الـمَـنَـايـا عَـهْـدَهُ فِـي سَـلِـيـلِـهِ
وَتَـنْـصُـرُهُ بَـيْـنَ الْـفَـوَارِسِ وَالـرَّجْـلِ (٤)

= الجحفل: الجيش العظيم، يمدح الشاعر آل الفقيد بالصبر والجلد أمام المحن، فسرعان ما يتخطّوْن حالة الحزن، لذا فهم لا يُعطون لهذه القضية أكثر ممَّا تستحقّ من اهتمام، ومن طبيعتهم الإقدام كرماح لا ترتدّ إلى الوراء بل إنها تشرّع إلى صدور الأعداء حالما يلتقي القوم بأعدائهم، فهم لا ينقصون على أعقابهم كنبل لا يرتدّ إلى الوراء، بل باستمرار وجهتهم إلى الأمام.

(١) و (٢) النصل: حديدة السيف. الهيجاء: من أسماء الحرب. الصوارم، الواحد صارم: السيف البتّار. يُخاطب الشاعر سيف الدولة متوسّلاً إليه أن يتعزّى بما حصل عزاء الملوك، فسائر الناس يقتدون بملوكهم، ويتعلّمون منهم أسلوب حياتهم، وكونه سيفاً متمرّساً بالحروب فلا يهتمّ بالموت ولا ينحني أمام طوارق الأزمات بل يصمد صمود الأقوياء الذين يُقارعون الحديد في ميادين القتال في كلّ وقت وكلّ مكان، ونشأ بينه وبين السيوف ودّ وألفة وعادة، حتى لكأنهما أهل.

(٣) العَبرة، بفتح العين: الدمعة. يُثير الشاعر في نفس ممدوحه قوّة الصبر على ما ألمّ به، إنه لم ير أثبت منه في حالات الحزن والفواجع، وهو عصيّ الدمع لا ينحني أمام المحن، إنه يُعمل عقله في كلّ الأمور ولا يتصرّف بقلبه، لأن من خبر الحروب والحروب إخوة العقول لا القلوب الرقيقة الشديدة الإحساس.

(٤) المنايا، الواحدة منيّة: الموت. السليل: الأولاد. إن شأن الموت عجيب مع رجل لطالما مارس لعبة الموت، فالموت إلى جانبه ينصره على أعدائه الأقوياء الفرسان والرجالة من المقاتلة فيجعلهم طعم الموت، والموت في نفس الوقت خائن يختطف ولده فلا يُراعي له حرمة ولا يهتمّ لوالد يفقد ولده أمل مستقبله وعونه.

وَيَبْقَى عَلَى مَرِّ الْحَوَادِثِ صَبْرُهُ
وَيَبْدُو كَمَا يَبْدُو والْفِرِنْدُ عَلَى الصَّقْلِ (١)
وَمَنْ كَانَ ذَا نَفْسٍ كَنَفْسِكَ حُرَّةٍ
فَفِيهِ لَهَا مُغْنٍ وَفِيهَا لَهُ مُسْلِ (٢)
وَمَا الْمَوْتُ إلَّا سَارِقٌ دَقَّ شَخْصُهُ
يَصُولُ بِلَا كَفٍّ وَيَسْعَى بِلَا رِجْلِ (٣)
يَرُدُّ أَبُو الشِّبْلِ ٱلْخَمِيسَ عَنِ ٱبْنِهِ
وَيُسْلِمُهُ عِنْدَ الْوِلَادَةِ لِلنَّمْلِ (٤)
بِنَفْسِي وَلِيدٌ عَادَ مِنَ بَعْدِ حَمْلِهِ
إِلَى بَطْنِ أُمٍّ لَا تُطَرِّقُ بِٱلْحَمْلِ (٥)

(١) الفرند: جوهر السيف. يمدح الشاعر في ممدوحه صبره العجيب أمام الشدائد والحوادث الجسام، فيبقى صامداً ويظهر عنصر الملوك والأبطال على حقيقته تماماً كما يُجلى السيف ويصقل فيبدو فرنده وقد اختفى الصدأ الذي يظهر على حقيقته.

(٢) يُردف الشاعر مبدياً رأيه بأن ممدوحه ذو نفس عزيزة كريمة، وهذا يكفيه ليتماسك أمام المحن والشدائد، مما يحمله على السلوى، والبشر لا بدّ لهم من شرب هذا الكأس راغمين، وتلك من مصائب الدهر، وعليه يتوجّب أن يقبل بفقد أحبائه راضياً محتسباً.

(٣) دقّ شخصه: شفّ ورقّ. يُعطي الشاعر رأيه بالموت، إنه شخص لا يتمثّل بشكل من الأشخاص، بل إنه فكرة، فلو كان شخصاً لسهلت مواجهته وأمكن القضاء عليه ولكنه سارق من نوع آخر، يمتاز بشفافية ورقّة بحيث لا يُرى، فأيديه تسلب الحياة من البشر، وإن كانت بلا كفّ وسعيه لا يكون برجل.

(٤) الشبل: ولد الأسد. الخميس: الجيش المؤلف من خمس فرق. يأتي الشاعر بمثال مفاده أن الأسد يُقاتل بشراسة عن شبله يحميه من غائلة الطامعين بهلاكه، ولكنه، للأسف، لا يستطيع حمايته من أضعف المخلوقات وأحقرها؛ فإنّ النمل يغزو الشبل الصغير ويتلبّسه فيُودي به إلى التهلكة، أورد الشاعر لممدوحه المثل كي يتعزّى بأقوى الحيوانات، فرغم قوتها تبقى عاجزة وقاصرة عن مواجهة الأقدار، تماماً كالأمير، إنه يقود الجيوش ويُودي بها إلى الموت، ومع ذلك فقد ضعف أمام الموت، فأسلم صغيره إليه مرغماً، ولم يستطع محاربته.

(٥) طرقت المرأة: عسرت ولادتها. يُعلن الشاعر استعداده لأن يُضحي بنفسه لو كان =

بَـدَا وَلَـهُ وَعْـدُ الـسَّـحَـابَـةِ بِـالـرِّوَى
وَصَـدَّ وَفِـيـنَـا غُـلَّـةُ الْـبَـلَـدِ الْـمَـحْـلِ (١)
وَقَـدْ مَـدَّتِ ٱلْـخَـيْـلُ الْـعِـتَـاقُ عُـيُـونَـهَـا
إِلَـى وَقْـتِ تَـبْـدِيـلِ الـرِّكَـابِ مِـنَ الـنَّـعْـلِ (٢)
وَرِيـعَ لَـهُ جَـيْـشُ الْـعَـدُوِّ وَمَـا مَـشَـى
وَجَاشَتْ لَهُ الْحَرْبُ الضَّرُوسُ وَمَا تَغْلِي (٣)
أَيَـفْـطِـمُـهُ الـتَّـوْرَابُ قَـبْـلَ فِـطَـامِـهِ
وَيَـأْكُـلُـهُ قَـبْـلَ الْـبُـلُـوغِ إِلَـى ٱلْأَكْـلِ (٤)

= الأمر بيديه لدفع الموت عن الصغير، ولكن الأمر أن الطفل قد استأثرت به أم لا تتخلّى عن من تحتضنه، فلا تُعيده إلى عالم الأحياء، لصعوبة عسر الولادة عندها.

(١) الرِّوى، بكسر الراء: الإشباع. الغلّة: العطش. المحل: المجدب والقاحل. عاد الشاعر إلى الحديث عن الوليد، فقد كان مولده بشرى سارّة تعد بموسم خير ورواء كأن في الأفق سحابة تعلن عن مستقبل زاهر، وبلا ومضات تنذر بالرحيل المفاجئ رحل تاركاً غُصة في النفوس وإحساساً بالعطش كأن في القلوب عطشاً شبيهاً بأرض تخطتها سحب تنذر برياح ورعود.

(٢) الخيل العتاق: كرائمها. الركاب: حيث يضع الفارس رجليه من السرج، إنه رحيل سريع حمل معه من كانت الخيول العتاق تُهيّأ ليعتليَ متونها في حال بلغ سنًّا يُعينه على امتطائها، وقد بذل نعليه بنعال الرجال.

(٣) ريع: أخيف. جاشت: هاجت وفارت. الضروس: التي لا هوادة فيها فهي تعضّ أصحابها. لقد كان مولد الطفل إيذاناً بحروب، فإذا بالأعداء يحسبون له ألف حساب، وقد دبّ الخوف في نفوسهم حتى كأن الحرب الضروس قد قامت فعلاً، ولم يضرب الطفل بسيف حتى لم يُتح له حمله، فكيف لو عاش؟

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٦. التوراب: لغة في التراب. الفطام: الحؤول دون الصبيّ والرضاع. يستنكر الشاعر كيف أن التراب استأثر به وفطمه، ولم يبلغ مرحلة الفطام من قبل أمه، ولم يكتف التراب بحرمانه من حقّه بالرضاع، فإذا به يلتهم جسده قبل أن يستعين بالأكل لينمو فالتراب نهم لا يكتفي بالقليل ولا حتى بالكثير.

وَقَبْلَ يَرَى مِنْ جُودِهِ مَا رَأَيْتَهُ
وَيَسْمَعُ فِيهِ مَا سَمِعْتَ مِنَ الْعَذْلِ[١]
وَيَلْقَى كَمَا تَلْقَى مِنَ السِّلْمِ وَالْوَغَى،
وَيُمْسِي كَمَا تُمْسِي مَلِيكاً بِلَا مِثْلِ[٢]
تُوَلِّيهِ أَوْسَاطَ الْبِلَادِ رِمَاحُهُ،
وَتَمْنَعُهُ أَطْرَافُهُنَّ مِنَ الْعَزْلِ[٣]
أَنَبْكِي لِمَوْتَانَا عَلَى غَيْرِ رَغْبَةٍ
تَفُوتُ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا مَوْهِبٍ جَزْلِ[٤]
إِذَا مَا تَأَمَّلْتَ الزَّمَانَ وَصَرْفَهُ
تَيَقَّنْتَ أَنَّ الْمَوْتَ ضَرْبٌ مِنَ الْقَتْلِ[٥]

---

(١) و (٢) العذل: اللوم. يُخاطب الشاعر سيف الدولة، لقد رحل الصغير، وكان يُؤمل منه أن يكون كريماً، فلم ير أحد جوده، وقد أمل الناس منه خيراً كثيراً آملين أن يعلو نجمه فيُثْخمهم بفيض كرمه حتى يُلام من قبل العذّل، ويردّ عليهم بمزيد من البذخ والإنفاق رغماً عنهم، وحتى يقوم بالدور الذي يقوم بأعبائه أبوه، فبيديه السلم والحرب، يُوقد نارها إن أراد ويُطفئ لهيبها إن رغب، ويرث ملك أبيه فيكون فريداً لا شبيه له بين سائر الملوك.

(٣) يذكر الشاعر التي على أساسها يلي الملك باقتدار، يقود الجيوش ويُخضع البلاد لإرادته فيذعنون له راغمين بقوّة السلاح، فرماحه تذلّ أوساط البلاد، ولا يستطيع أحد عزله عمَّا ملك، فتثبيت ملكه يكون بعزمه لا بالواسطة من غيره، فيعزله متى شاء ويُعيده متى أراد.

(٤) يروى «نُبكّي» بدلاً من «أنبكي»، الموهب: العطية. الجزل: الكثير، يسأل الشاعر ما بال البشر يبكون موتاهم؛ فالبكاء لا يُعيد ما سُلب، فالكلّ رحل وقد حصل على ما يستحقه في هذا الوجود، إنها نظرة تشاؤميَّة، فالمرء يترك كلّ شيء ويعود إلى التراب لا يحمل شيئاً ممّا حصله في هذا الوجود، فالجاه متروك والفقر متروك، وكلّ شيء يفوته الإنسان ويرجع كما ولدته أمه سوى ما يُغطّي جسده إلّا عمله الصالح، فهو زاده.

(٥) يُخاطب الشاعر ممدوحه وسائر البشر أن تقلّبات الزمان وصروفه والخطّ البيانيّ لحياة =

وَمَـا الـدَّهْـرُ أَهْـلٌ أنْ تُـؤَمَّـلَ عِـنْـدَهُ
حَـيَـاةٌ، وَأَنْ يُـشْـتَـاقَ فِـيـهِ إِلَـى الـنَّـسْـلِ[١]

يا من يريد حياته لرجاله

وقال يمدح سيف الدولة:

[الكامل]

لَا ٱلْـحُـلْـمُ جَـادَ بِـهِ وَلَا بِـمِـثَـالِـهِ
لَـوْلَا ٱدِّكَـارُ وَدَاعِـهِ وَزِيَـالِـهِ[٢]
إِنَّ الـمُـعِـيـدَ لَـنَـا الـمَـنَـامُ خَـيَـالَـهُ
كَـانَـتْ إِعَـادَتُـهُ خَـيَـالَ خَـيَـالِـهِ[٣]

= سائر واحد ينتهي بفاجعة الموت؛ فالموت طريقة من طرق القتل التي تُودي بأبناء البشرية إلى حتوفهم، لذا فلا سبيل للبقاء في هذا الوجود، ومن حقّ الإنسان أن يترك أثراً يُذكر به، وهذا شأن العظماء منهم الذين تركوا للبشرية ما يُذكّرها بهم.

ـ ورد بعد هذا البيت أبيات ثلاثة لم ترد في الديوان، وهي التالية:

هَـلِ الـوَلَـدُ الـمَـحْـبُـوبُ إِلَّا تَـعِـلَّـةٌ ... وَهَلْ خَلْوَةُ الحسناءِ إِلّا أذَى البَعْلِ؟
وَقَدْ ذُقْتُ حَلْوَاء البنينَ عَلَى الصِّبَا، ... فَلَا تَحْسَبَنِّي قُلْتُ مَا قُلْتُ عَنْ جَهْلِ
وَمَا تَسَعُ الأَزْمانُ عِلْمِي بِأَمْرِهَا، ... وَلَا تُحْسِنُ الأَيَّامُ تَكْتُبُ مَا أُمْلِي

(١) يُخاطب الشاعر ممدوحه بخلاصة تجربته أن على المرء ألّا يركن إلى الحياة، فالدهر خوّان لا يُمكن اتّخاذه صديقاً وفيًّا، إنه لا يعين المرء على تحقيق ما يصبو إليه بل على العكس يحول دون ذلك إمعاناً في كيده، كما أن المرء عليه ألّا يحزن لموت أولاده، لأنهم قد يكونون بعده فتفجعهم الحياة بأنفسهم إن لم تفجع آباءهم بهم.

(٢) يبدأ الشاعر قصيدته المدحيَّة بمطلع غزلي. الحلم: النوم. المثال: الصورة. المزايلة: المفارقة. يتحدّث الشاعر عن صدود وهجر حبيبته، إنه ممتنع، فلا يزوره في ليل نجواه وقد غرق الكون في سُبات عميق، والشاعر يغفو علّه يرى طيف الحبيب، فالبخل حجب عنه حتى الخيال، فحتى صورته في وهم مخيّلته تكاد تكون مبهمة، ولولا التّذكّر لامحت الصورة تماماً من ذاكرته، فساعة الوداع لا تزال تُراود خياله، ومفارقته لا زالت ذكراه في الخيال.

(٣) أخيراً أفلح الشاعر أن يستحضر صورة محبوبته، ولكنها صورة منسوخة لا عن الأصل، بل إنها منسوخة عن مخيّلة باهتة الألوان ممسوخة الصورة ليوم الوداع إنها =